الدرس السادس

إشعياء: دينونة الأمة وخطة الله لبقية تقية

إشعياء 1–6

1. قاعة محكمة الله

نرى في الفصل الأول دعوة جادة للكون للحضور إلى قاعة محكمة الله لسماع التهمة التي يوجهها الله إلى أمّة إسرائيل. وتأتي الوحدة الأدبية الأولى (1: 2–20) على صورة "دعوى قضائية عهديّة". إذ يُتهم شعب الله بخرق العهد والتمرد على الرب الذي يرتبطون معه بعلاقة عهد. غير أنه في نفس الوقت "قدوس إسرائيل" (1: 4)، وهو لقب يشير إلى سلطانه السيادي على إسرائيل، ويهدف إلى تذكير شعبه بمطالبه الأدبية والأخلاقية. وتقدّم الأصحاحات الأولى أدلة منتقاة على عدم وفائهم للعهد:

1. لم يكن هنالك عدل في الأرض (5: 7؛ 10: 2؛ قارن مع 59: 8، 14، 15).
2. كان حكام إسرائيل لصوصاً يقبلون الرشوة (1: 23 ؛ 5: 23).
3. كان القتل متفشياً (1: 21 ؛ 5: 27).
4. كان سلب الفقراء والأرامل واليتامى أمراً شائع الحدوث (1: 23؛ 3: 14، 15؛ 10: 2).
5. كان السكر والعربدة شائعين بين الشعب (5: 11، 12، 23).
6. أصبحت أعمال عبادتهم طقوساً جوفاء (1: 11–15).
7. شاركوا في ممارسات العبادة الوثنية وحتى أعمال السحر والعرافة (1: 29 ؛ 2: 6 ؛ قارن 8: 19).

أخلّوا بشروط العهد، ولهذا لا بدّ أن يدينهم الله. وعلى الرغم من أن الله بطيء الغضب وطويل الروح، إلا أنه يبقى وفياً لمبادئه التي أعلنها في سفر التثنية 28–30 التي تنص على جلب اللعنات على الأمةِ في حال عصيانها (قارن 1: 19–20). وإن عدم رجوعهم إلى الرب استجابةً لأشكال خفيفة من التأديب يعني أن يجلب الله عليهم إجراءات تأديبية أكثر صرامة. وستصل هذه الإجراءات إلى ذروتها بالسبي من الأرض نفسها كما يؤكد الله في إشعياء 5: 13. يقول:

"لذلك سُبي شعبي لعدم المعرفة."

2. تنفيذ الدينونة

تكشف لنا قراءتنا لسفر إشعياء أن الموضوع المهيمن عليه هو الدينونة. ولا تقتصر هذه الدينونة على أعداء الرب، لكنها تمتد لتشمل أيضاً الشعب الذي قطع معه عهداً. غير أن هدفه النهائي ليس القضاء على أعدائه؛ فالغاية المرجوة هي إعادتهم إليه. ويرسم لنا الله في مرحلة مبكرة من السفر (مثلاً1:2–4) مجد عالمه وقد استرده لنفسه... عالم تحت حكمه وخاضع له. ومن هنا فإن الغرض الأساسي لسفر إشعياء هو أن يبيّن أن يهوه يدين العالم كله لكي يعيد العالم عامةً –وإسرائيل خاصةً– للغاية الإلهية، ألا وهي الخضوع والانضباط تحت حكمه.

ولموضوع الدينونة في سفر إشعياء تطبيقات قريبة وبعيدة زمنياً. فبما أن شعب الله متمرد عليه، فإن أداتي العقاب، أشور وبابل تشكّلان حقيقتين حاضرتين لا يمكن تجنبها.

غير أن هذه الدينونات الحاضرة تخرج أيضاً بدينونات لاحقة مرافقة ليوم الرب الذي سيدان فيه العالم كله. ومن هنا فإن الدينونات الحاضرة صورة للدينونة الشاملة، أو تحقيق متدرج لوعد الدينونة الأخيرة. وفي هذا المجال يقول جاك دير: "قبل أن يكون تأسيس ملكوت الله على الأرض أمراً ممكناً، لا بدّ أن تجري دينونة كاملة من أجل تطهير الأرض وسكانها استعداداً لحكم يهوه."[1]

ويبرز الآن سؤال حول ماهية العقاب الملائم أو الدينونة المناسبة للأمة التي خرقت عهدها مع الله. فبدلاً من أن يقوم الله بإنزال دينونة كلية على الأمة في ذلك الوقت، فإنه سيؤجل ذروة دينونته إلى يوم الرب. ومن شأن هذا أن يسمح له بإنجاز جوانب أخرى كثيرة من خطته، أهمها توفير طريقة لغفران الخطايا عن طريق الموت الكفّاري لعبده، المسيّا. لكن، وإلى أن ينهي الله عمله التطهيري في يوم الرب، لن يكون إسرائيل في وضع بارز بين أمم العالم (مع أنهم دُعوا كشعب فريد لعهد الله).

وتعلن هاتان الدينونتان القريبتان، أي السبيان الآشوري والبابلي، حلول "أزمنة الأمم" (قارن لوقا 21: 24؛ رومية 11: 25). وسيظل إسرائيل تحت سلطان الأمم إلى أن يكون الله مستعداً للتعامل معهم بشكل نهائي في يوم الرب. وعندئذٍ سيُحضر الجميع إلى الدينونة وينزع

[1] جاك دير، "دراسة لاهوتية لإشعياء" (بحث غير منشور، كلية دالاس للاهوت، بلا تاريخ)، 122.

كل غير المؤمنين والمتمردين على سلطانه، وسيردُّ إسرائيل بالإيمان إلى نفسه مرة أخرى. ومن خلال هذه الدينونة التطهيرية، سيقوم الله بإعداد العالم وشعب عهده لافتتاح ملكوته، مؤسساً العالم على السلام والبر في الخضوع له.

ويمكن تلخيص هذه العملية على هذا النحو:

1. إسرائيل مذنبون في خرق عهدهم مع يهوه، ولم تنجح "اللعنات" المتنوعة التي أرسلها الله عليهم في إعادتهم إليه (2:1–7).
2. يستحق إسرائيل دينونة قاسية، لكن الله سيؤجلها إلى يوم الرب حين سيُنزل دينونته لا على إسرائيل وحدها، بل على العالم كله أيضاً.
3. غير أن الله سيفرض أشكالاً أخرى من التأديب حتى يصل إلى وقت الذِروة:
   أ. سيؤدَّب إسرائيل بالاجتياح الأجنبي والسبي من الأرض.
   ب. لن تكون إسرائيل أمةً بارزة متفوقة، بل ستكون خاضعة للشعوب الأممية ("أزمنة الأمم").
   ج. ستتقسَّى إسرائيل في عدم الإيمان، فيكونون على مدى معظم تاريخهم "عمياناً روحياً" أمام عمل الله وعاجزين عن الاستجابة بالإيمان.

ورغم إيقاع الله للدينونات عليهم، إلا أن النعمةَ ستتجلى:

1. سيعيد الله الأمة من السبي ويعطيهم فرصة أخرى ليحيوا بأمانة في الأرض (إشعياء 40 وما يليه).
2. ستنجو بقية من الأمة من دينونة التقسية حتى لا يكون الرب يوماً بلا شاهد (9:1 ؛ 13:6).
3. أثناء فترة تأجيل الدينونة، سيستخدم الله ذلك الوقت لتقديم كفّارة عن خطايا العالم (إشعياء 53).
4. يمكن إيصال خطة الله للخلاص إلى جميع أطراف الأرض (إشعياء 22:45).
5. سيقوم الله في نهاية المطاف بجمع إسرائيل التائبة وردّهم إليه، وسيتبارك شعب إسرائيل من كل الأجيال والعصور في الملكوت الألفي (إشعياء 1:2 – 4 ؛ 1:11 وما يليه).

3. علاقة إشعياء 6 بالأصحاحات الخمسة الأولى

ما هي علاقة الأصحاح السادس من إشعياء بالأصحاحات الخمسة الأولى منه؟ هذا سؤال فيه كثير من الأخذ والرد. وتوجد إجابتان عامتان مقترحتان:

1. تحتوي الأصحاحات الخمسة الأولى على أجوبة إلهية موحاة موثوقة من قبل رؤيا إشعياء في الأصحاح السادس،

أو

2. تصلح الأصحاحات الأولى الخمسة من إشعياء كمقدمة للسفر وذلك بجمع أقوال إلهية موثوقة مختارة من فترات مختلفة (تم جمعها بطريقة تحريرية دون أن ترتّب ترتيباً زمنياً).

غير أن ما يهم هنا هو أن الأصحاحات الخمسة الأولى تشكل مقدمة مناسبة لدعوة الله لأشعياء في الأصحاح السادس. لكن هذه الدعوة ليست دعوة "شخصية للخلاص،" بل هي دعوة محددة وفريدة له كنبي لكي يقسّي الأمة في عدم الإيمان في ضوء عصيانها.

4. خدمة إشعياء الفريدة في تقسية إسرائيل في عدم الإيمان

إن جزءاً من عقاب الله لإسرائيل بسبب عدم أمانتهم للعهد هو أن الله لن يسمح لهم بأن يختبروا ردّه النهائي إليه إلاّ بعد الفترة التي يفرض فيها دينونته الشاملة في يوم الرب. وبما أن التوبة على نطاق قومي هي مفتاح رد الله النهائي لإسرائيل (قارن تثنية 30)، فإن الله سيحول بينهم وبين الإيمان والعودة إليه. وهذا هو معنى أن يقسي إسرائيل (أن يكون أعمى روحياً) لكي يمنعهم من أن يتوبوا كما يتوجب عليهم. وهنا يطلب الله من إشعياء أن يتحرك ويعمل. ليست دعوة إشعياء في الأصحاح السادس مجرد دعوة إلى الإيمان الشخصي أو حتى إلى دور في الخدمة كنبي. بل هي أيضاً أقرب إلى خدمة فريدة في "تقسية" الأمة في عدم الإيمان (6:9–10). يطلب الله من إشعياء أن يمارس وظيفته النبوية فيقول:

"غلّظْ قلب هذا الشاب. . . لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه، ويرجع فيشفى". (6:10)

من هذه النقطة فصاعداً صارت الأمة (ككل) غير حساسة روحياً، وغير قادرة على الاستجابة بالإيمان لإعلانات الله.[2] كانت هذه التقسية للأمة ما تزال تعمل في أيام المسيح، وهي السبب الحقيقي لرفض شعب العهد للرب يسوع عندما قدّم لهم نفسه بصفته مسيحهم. لاحظ بعناية يوحنا 12:37–41! تقول الآية 37: "ومع أنه كان قد صنع أمامهم آياتٍ هذا عددها، لم يؤمنوا به." ثم يقتبس يوحنا إشعياء 53:1 التي كانت قد تنبأت بعدم تجاوب إسرائيل مع المسيّا – العبد. ويُتبع يوحنا هذا الاقتباس بذكر سبب عدم استجابة إسرائيل بالإيمان لشخص يسوع وخدمته في يوحنا 12:39:

[2] من أجل أفكار متبصّرة مفيدة حول دافع التقسية، أنظر مقال Robert B. Chisholm, Jn., "Divine Hardening in the Old Testament" DibSac 153: 612 (Oct-Dec 1996): 410-434. يلاحظ المؤلف أن أوامر الله بتقسية الشعب قيلت بلغة السخرية: ". . . طلب الله من إشعياء أن يقسّي الشعب لأن كرازته ستُحدث في نهاية الأمر ذلك التأثير فيهم" (432).

"لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا، لأن إشعياء قال أيضاً . . ." ثم يقتبس يوحنا إشعياء 10:6 لدعم هذه النقطة، وهي أن إسرائيل واقعة تحت التقسية منذ أيام النبي إشعياء. فليست القضية مجرد أنهم لم يؤمنوا، بل القضية هي أنهم لم يقدروا أن يؤمنوا! ويشرح هذا عدم إيمانهم استجابةً ليسوع.

لكن حتى متى ستدوم هذه "التقسية" للأمة؟ إن الجواب هو: طوال الفترة المعروفة باسم "أزمنة الأمم". فبما أن إسرائيل يرفض أن يخضع ليهوه، فإن الله سيُخضعه لشعوب العالم الأممية الوثنية، نفس الشعوب التي كان يفترض أن يكون إسرائيل شاهداً للرب بينها. وسيستمر هذا، حسب الكتاب المقدس، حتى عودة يسوع المسيح (التي تتزامن مع يوم الرب).
وفي واقع الأمر، ورغم أن الله دعا إسرائيل ليكونوا شهوداً له أمام هذا العالم غير المؤمن، إلا انه سيقوم بعمل عظيم ألا وهو جلب جموع غفيرة من الأمم إليه، بينما سيبقى إسرائيل في عدم الإيمان. وبعد أن يكون الرب قد نفّذ هذا كما يشاء ويرضى، سيتعامل بشكل فريد مع إسرائيل من اجل إرجاعهم إليه.

5. إيجاد بقية مؤمنة

أراد إشعياء أن يعرف "إلى متى" وجب عليه أن يستمر في مثل هذه الكرازة إلى شعب تقسّى قلبه (إشعياء 11:6). فأجابه الربُّ بأن عليه أن يستمر إلى أن تهاجم البلاد ويؤخذ الشعب إلى المنفى. وقد كان التحقيق الأولي لهذا في السبي الآشوري الذي وقع على المملكة الشمالية في أيام إشعياء.

غير أن تقسية الأمة لم تتوقف عند تلك النقطة. بل امتدت إلى ما بعد السبي الذي تم في أيام إشعياء. أي أن الله لن يرفع هذه التقسية إلاّ بعد أن تنفَّذ دينونته على الأرض بشكل كامل. وفي نهاية الأمر لن يكتمل هذا قبل "ضيقة يعقوب" الأخروية، أي الضيقة العظيمة (قارن أرميا 30: 7؛ دانيال 1:12).

غير أن الله كريم ومنعمٌ جداً وهو لهذا يوفّر مقداراً من النعمة للأمة. فعلى الرغم من أن الأمة ككل ستوضع تحت "التقسية" و"عدم الإيمان"، فإن الله سيحتفظ لنفسِه في كل جيل "ببقية" مؤمنة. فالزرع المقدس الذي يُترك في الساق (إشعياء 13:6) يشير إلى هذه البقية. وضمن بني إسرائيل، سيكون هنالك دائماً إسرائيل "مؤمن". كانت هنالك بقية تاريخية في زمن إشعياء نجت من الدمار (بشكل رئيسي في أورشليم)، لكنها ستكون صورة لبقية مستقبلة ستعود إلى الأرض من السبي (إشعياء 21:10؛ 11:11، 16). وهكذا فإن "التقسية" في واقع الأمر جزئية. سيُغلق على الأمة ككل في عدم الإيمان، لكن الله سيدبر مجيء أقلية من الأمة للإيمان يكون لها عيون

تبصر! كان إشعياء وجماعته هم البقية المؤمنة في ذلك العصر. وعبر التاريخ سيستمر خط هذه البقية من الإسرائيليين الحقيقيين الأتقياء من أمثال دانيال وعزرا ونحميا. وفي أيام المسيح كان التلاميذ الذين تبعوه جزءاً من تلك البقية ضمن إسرائيل. وفي سياق الأمثال التي رواها الرب يسوع عن الملكوت، قال لأتباعه بعد أن اقتبس إشعياء 6: "ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر، ولآذانكم لأنها تسمع." (متى 16:13).

كما نظر الرسول بولس إلى يهود عصره المؤمنين كبقية. ويتناول بولس عقيدة البقية هذه في رومية 9–11. يقول في رومية 6:9: "ولكن ليس هكذا حتى إن كلمة الله قد سقطت. لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون." أي أن الله لا يطبق وعوده على أشخاص لمجرد أنهم من بني إسرائيل حسب الجسد. لكنه يطبّق وعوده على الذين هم "من الإيمان" أيضاً. ثم يتابع قوله في رومية 5:11–8،

"فكذلك في الزمان الحاضر أيضاً قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة. فإن كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال، وإلّا فليست النعمة بعد نعمة. وإن كان بالأعمال فليس بعد نعمة، وإلّا فالعمل لا يكون بعد عملاً. فماذا؟ ما يطلبه إسرائيل ذلك لم ينله. ولكنِ المختارون نالوه، وأمّا الباقون فتقسّوا."

ثم يقتبس إشعياء 10:29 لدعم حجته:

"أعطاهم الله روح سبات، وعيوناً حتى لا يبصروا، وآذاناً حتى لا يسمعوا إلى هذا اليوم."

وهكذا يتحدث بولس عن "تقسية جزئية" للأمة في الفترة التي تسمى أزمنة الأمم. إنها جزئية لأن ليس كل بني إسرائيل قد تقسّوا. إنهم دائماً أقلية، لكن الله قد قام عبر القرون بتجنيب بعضهم "التقسية". ولمجد الله، فلقد كان هنالك على الدوام مؤمنون عظماء بالمسيح من أصل يهودي! يقول بولس في رومية 25:11،

"فإني لست أريد أيها الأخوة أن تجهلوا هذا السر، لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء: أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملء الأمم."

ولن يخلص "كل إسرائيل" قبل ذلك الحين. (ستخلص الأمة ككل، ولن يخلص بالضرورة كل فرد من بني إسرائيل).

وهكذا فإن عقيدة البقية جانب هام جداً من لاهوت إشعياء. فهي بمعنى ما الخط المستمر من الإسرائيليين المؤمنين الذين ينجون من الدينونات التاريخية، كما هو معبّر عنه في إشعياء 9:1،

"لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقيةً صغيرة، لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة."

وفي أحيان أخرى يركّز إشعياء على البقية الأخروية (إشعياء 20:10–23) التي تنجو من فترة العقاب الأخيرة. وفي أي من الحالتين، فإن الذين يضعون ثقتهم في يهوه هم الذين يؤلفون "البقية".

درس لحياتنا

كان نظام الذبائح في العهد القديم من وضع الله، وقد أمر أن ينفّذه الشعب. لكن الله يكشف في إشعياء 1:11–12 ازدراءه للذبائح:

"لماذا لي كثرة ذبائحكم؟" يقول الرب. اتّخمتُ من محرقات كباش وشحم مسمَّنات، وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أُسَر. حينما تأتون لتظهروا أمامي، من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري؟"

لم يكن الله في واقع الأمر مشمئزاً من الذبائح، بل من حقيقة أنها أصبحت حفظاً آلياً فارغاً من المعنى يقوم به الشعب الذين يعيشون حياة عصيان. فالله لا يجد أية مسرة في خدمتنا له إن كنا نسلك في العصيان ونحن نخدمه. ويذكرنا هذا اليوم بأن علينا أن نحيا بضمير نقي. فإذا أخطأنا (وهذا أمر مؤكد الحدوث) فإن علينا أن نعترف بذلك للرب وأن نتعامل مع خطيتنا. وإلّا فإن الله لن يستجيب صلواتنا (انظر إشعياء 1:15).